

THE IMAGE OF MOROCCO IN THE BOOK "MOORS IN PORTUGAL DURING THE SIXTEENTH CENTURY" _ AHMED BOUCHARIB - A MODEL

AHMED BELGARI ¹

Researcher, Mohammed V University, Morocco

Abstract:

This article seeks to address a basic topic stemming from the approach to the image of Moroccans in the eyes of the Portuguese, based on the historical book "The Moroccans of Portugal in the Sixteenth Century" by Professor Ahmed Boucharib. This book presents the manifestations of that image and talks about the factors that contributed to its formation. And helped to consolidate and consolidate its features in this book, the author presents us with images that were created about the Moroccan other in that historical period and some aspects related to the image.

What are the most prominent images embodied by the other Moroccan? How do the Portuguese view other non-Europeans? What are the features of these composite images of Moroccans in the Portuguese imagination?

Key words: The Image, The Other, The Moroccans, The Portuguese, The Impossible Coexistence .

 <http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.16.26>

¹  ahmed90belgari@gmail.com, <https://orcid.org/0000-0002-4560-7549>

صورة المغرب في كتاب "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر" للكاتب المغربي أحمد بوشرب - نموذجاً

أحمد بالكارى

د، جامعة محمد الخامس، المغرب

الملخص:

يسعى موضوع مقالنا هذا لمعالجة إشكالية أساسية تنطلق من مقارنة صورة المغاربة في أعين البرتغاليين، انطلاقاً من النص التاريخي المعنون بـ "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر" للأستاذ أحمد بوشرب، وذلك بعرض مظاهر تلك الصورة وإبراز العوامل التي أسهمت في صنعها وساعدت على ترويجها وترسيخ معالمها، في هذا الكتاب يظهر لنا الكاتب الصور المشيدة عن الآخر المغربي في تلك الفترة التاريخية وبعض الجوانب المرتبطة بها، فما هي أبرز الصور التي جسدت الآخر المغربي؟ وكيف ينظر البرتغاليين إلى الآخر غير الأوربي؟ وما ملامح هذه الصور المشيدة عن للمغاربة في متخيل البرتغاليين؟

الكلمات المفتاحية: الصورة، الآخر، المغاربة، البرتغاليين، التعايش المستحيل.

المقدمة

إن الموقع الاستراتيجي للمغرب والبرتغال على مدخل البحر الأبيض المتوسط، سهل منذ العصور القديمة تنقل شعوب وأجناس مختلفة بين الضفتين الشمالية والجنوبية للمتوسط، وذلك عبر مضيق جبل طارق، وتطورت هذه العلاقات بين البلدين حتى طبعت الشخصية المغربية والبرتغالية بنقاط تشابه واختلاف متعددة، غدتها سنوات من التنافس السياسي وفترات من الحرب والسيطرة ما بين البلدين.

من خلال هذا الكتاب المعنون بـ "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر" للأستاذ أحمد بوشرب²، والصادر عن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ضمن سلسلة رسائل وأطروحات رقم 36، في طبعته الأولى لسنة 1996، سنسعى إلى تسليط الضوء على الوقائع التاريخية المرتبطة بالبدايات الأولى لتكون الجالية المغربية في البرتغال، وأسباب استقرار المغاربة في هذا البلد والظروف العامة التي طبعت وجودهم خلال تلك الفترة التاريخية.

يشكل هذا الكتاب مادة دسمة للباحثين المغاربة المهتمين بالثقافة البرتغالية في علاقتها بالمغرب، إذ يقدم معلومات تاريخية مهمة عن أسباب ومراحل الغزو البرتغالي للسواحل المغربية، وعن الظروف التي أدت إلى استقرار المغاربة في البرتغال، والعوامل التي أثرت في العلاقة بين المغاربة والبرتغاليين، وأسباب التعايش المستحيل التي طبعت العلاقة ما بين المغاربة والبرتغاليين.

جدير بالذكر، أن هذا الكتاب التاريخي "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر" هو بالأساس بحث لدرجة الدكتوراه، "نوقش هذا البحث يوم 31 مارس سنة 1987 بجامعة Paul Valéry بمدينة Montpellier، ونال درجة الدكتوراه بميزة مشرف جداً، مع التوصية بالطبع، وقد كان تحت عنوان:

*Les crypto-musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVI^e siècle*³

سننطلق من هذا النص لمقاربة صورة الآخر المغربي وتبيان أنماطها المختلفة، وسنحاول الإجابة عن العديد من الأسئلة التي تركز أساساً حول الإيجابي والسلبي في تشييد الصور النمطية عن الآخر غير الأوروبي.

1- الهجرة المغربية الأولى إلى البرتغال

يحتل الأرشيف الأجنبي مكانة هامة ضمن المصادر التي يعتمد عليها الباحثون المغاربة والأجانب للبحث عن المزيد من الكتابات التي تناولت تاريخ المغرب، وذلك من خلال الكم الهائل من الكتب التاريخية الذي تزخر بها المكتبة البرتغالية عن المغرب، الشيء الذي واد اهتماماً كبيراً من طرف الباحثين البرتغاليين والمغاربة بالأرشيف البرتغالي المتعلق بفترة سيطرة البرتغال على السواحل المغربية التي دامت لأزيد من ثلاث قرون، بدأ باحتلال مدينة سنة 1415 إلى حدود التخلي عن مدينة "مزاغان" Mazagão سنة 1769.

ارتبطت الموجات الأولى للهجرة المغربية إلى البرتغال بسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية بالمغرب، لذلك هاجر العديد من المغاربة من مناطق مختلفة إلى البرتغال، ذهب البعض منهم باحثين عن فرص عيش أفضل، وآخرون لتغيير حياتهم، والبعض الآخر أجبروا لسوء الأوضاع الاقتصادية وتوالي سنوات الجفاف والمجاعات، وصنف آخر أكرهوا على الهجرة لدواع سياسية، لنصرتهم لفريق سياسي على آخر وهو ما جرى لأنصار المتوكل السعدي⁴، "فاضطر أنصار هذا الأخير إلى عبور البحر والاستقرار في البرتغال"⁵.

بدأت هذه الهجرات المغربية إلى البرتغال مع بداية القرن السادس عشر، حيث ساهمت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والأزمة السياسية الخانقة بين المتصارعين عن السلطة بالمغرب، وبرز سنة المجاعة الكبيرة التي ضربت المغرب سنة 1521، وهذه السنة بالذات هي التي عرفت أكبر عدد من المهاجرين المغاربة، فشهدت هذه السنة لوحدها أعداد ضخمة نزحت إلى البرتغال، حيث "العدد الأضخم الذي نزح إلى البرتغال حسب المؤرخين البرتغاليين، حيث توالت سنوات الجفاف في هذه المرحلة الشيء الذي ساهم في فرار المغاربة طواعية من الجوع والموت، والسبب الآخر الذي ساهم بهجرة المغاربة إلى البرتغال هو الاضطرابات والتقلبات السياسية حيث شهدت سنة 1549 دخول السعديين إلى فاس وفرار

² أحمد بوشرب أستاذ التاريخ أحد كبار المتخصصين في الدراسات البرتغالية، له إصدارات متعددة أبرزها: دكالة والاستعمار البرتغالي، ومغاربة في البرتغال، وأيضاً وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، مترجم كتاب حوليات أصيلا (1508-1535) وأصدر كذلك كتاب شمال المغرب من خلال مصادر برتغالية.

³ أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 09

⁴ محمد المتوكل السعدي «سلطان المغرب بين 1574-1576م، تحالف مع الأوروبيين بعد أن فقد عرشه، توفي عام 1578م في معركة وادي المخازن. وكان المتوكل فقيهاً وشاعراً.

⁵ أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 35

الوطاسيين إلى الشمال ومنه إلى البرتغال، حيث تلا ذلك الحدث هجرة أعداد مهمة إلى لشبونة للإلتحاق بأبي حسون الوطاسي الذي سبقهم لطلب النجدة من البرتغاليين، وارتبط وصول موجة أخرى من المغاربة مع عزل المتوكل السعدي وانتمائه بالدون "سيستيان" 6 سنة 1576 طلبا لاسترجاع ملكه، والموجة الأخيرة ارتبطت بمعركة وادي المخازن التي هزم الملك البرتغالي وحليفه محمد المتوكل فاضطر أنصار هذا الأخير إلى عبور البحر والاستقرار في البرتغال"7.

إن الهجرة المغربية إلى البرتغال، كانت في بادئ الأمر، هجرة طوعية بل واختياراً للبعوض، لكن سرعان ما أصبحت إكراهاً ولجوءاً إلى البرتغال، هاجرا العدد الأضخم من المغاربة آنذاك لسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية بالمغرب التي عرفت تلك الفترة التاريخية التي اتسمت بالمجاعة والجفاف والاضطرابات السياسية.

2- اضطهاد الآخر المغربي في البرتغال

تكونت الجالية المغربية بالبرتغال مع بداية القرن السادس عشر، وصادف وجودهم فترة من التعصب والعداء للمسلم الشيء الذي مهد لإنشاء محاكم التفتيش الدينية، وقد بدأت هذه المرحلة بالقرار الذي اتخذته الملك الدون "مانويل" والقاضي بإكراه مسلمي البلاد على التنصر أو الهجرة، فانعكس هذا القرار على كل مناحي حياة المغاربة والعرب بالبرتغال، فزاد هذا القرار من تازم الوضعية المتأزمة والصعبة للمهاجرين، الشيء الذي ضاعف من مستويات العداء للإنسان المغربي، فما هي أبرز الصور التي جسدت الآخر المغربي في البرتغال؟ وكيف ينظر البرتغاليين إلى الآخر غير الأوربي؟ وما ملامح هذه الصور المشيدة عن مغاربة البرتغال؟

1-1 صورة المغاربة الأحرار والعبيد

إن أولى الصور التي جسدت المغاربة بالبرتغال، تكمن في تقسيم المغاربة إلى مجموعتين أساسيتين وهما: مجموعة أولى، مغاربة أحرار وأخرى مغاربة عبيد، يورد الكاتب ذلك على النحو التالي حيث يقول: " كان المغاربة الأحرار منهم والعبيد، يقومون بأعمال مضمينة، غير أنه يجب التمييز في هذا الباب بين من كانوا يعيشون في حالة أسر، ومن كانوا أحراراً8. ويضيف الكاتب قائلاً: " فالأسرى الذي كانوا يمثلون نسبة مهمة من الجالية المغربية، عانوا من إكراهين: فضلاً عن ظروف العيش القاسية التي عانى منها المغاربة، حرم هؤلاء من حريتهم ومن صفتهم الأدمية، إذ كان المجتمع آنذاك يعتبر الأسرى مجرد بضاعة، لذا تعاقب على ملكية بعض من الأسرى المغاربة عدد من الأسياد"9.

ويؤكد الكاتب أحمد بوشرب أن الأسرى كانوا يبادلون بعبيد آخرين، أو يعارون أو يقدمون كهديايا في بعض المناسبات، كما كانوا يرثون ويقدمون كقسم من الصداق. ومثل العبد في نفس الوقت وسيلة إنتاج ومظهراً من مظاهر الغنى، كما كان اقتناؤهم يعتبر استثماراً مربحاً بالنسبة للمواطن العادي، خصوصاً في حالة اقتناء أسيرة في سن الإنجاب. لذا كان الإقبال عليهم من لدن مختلف فئات المجتمع البرتغالي. فحتى الكنيسة، من الراهب البسيط إلى الأسقف، أقبلت على تلك "السلعة" وتبقى الأسر النبيلة والملكية على وجه الخصوص أكبر مالك للأسرى والعبيد إذ ضمت قصورها المئات منهم.

يستند الكاتب أحمد بوشرب على إحدى الشهادات لأسير مغربي وصف بأنه (أسير موريسكي يحمل سلاسل) أنه رأى موريسكيا ملتحمياً أبيض اللون على خديه علامات أو حروف، كما رشم صليبان على خدي ابن مغربيين أنجب خلال أسرهما، وقد كانت الظاهرة عامة إلى حد أن المحققين اعتادوا مساءلة المتهمين عما إذا كان الأشخاص المبلغ عنهم يحملون تلك العلامة10.

وتزخر محاكم التفتيش بالإشارات إلى معاناة الأسرى من سوء معاملة أسيادهم، ولم يقتصر سوء المعاملة على الأسرى المغاربة، بل عانى منه كل المسلمين. فقد اشتكى أسير تركي للمحققين من قساوة سيده الذي كان ينقله بالسلاسل ويميته جوعاً،

6 "الدون سيستيان" باللغة البرتغالية Dom Sebastião؛ ولد (20 يناير 1554) كان ملكاً للبرتغال من 11 يونيو 1557 إلى 4 أغسطس 1578 هو الملك البرتغالي ما قبل الأخير من أسرة أفيش بعد وفاته في معركة الملوك الثلاثة.

7 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 35
8 نفسه، 103

9 نفسه، ص. 103

10 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 105

واشتكى هندي من قساوة سيدته التي كانت تسيء معاملته وتتركه شبه عاري، وصرح عبد من حوض السنغال بأنه سيدته كانت تأمر بخلع ثيابه وتجده بكل قساوة وبدون سبب او مبرر. 11

1-2- المعاملة اللاإنسانية للأسرى المغاربة

كان الأسرى المغاربة يعتبرون مجرد أشياء قابلة للبيع أو المقايضة، فهم مجرد سلعة تباع وتشتري بأبسط الأثمان وكان الكثير منهم يجوب الأزقة والأسواق وهم مثقلين بالسلاسل والأغلال أو يعملون في أعمال شاقة.

"فالأسرى، الذين كانوا يمثلون نسبة مهمة من الجالية المغربية، عانوا من إكراهين: ففضلاً عن ظروف العيش القاسية التي عانى منها كل المغاربة، حرم هؤلاء من حريتهم ومن صفتهم الأدمية، إذ كان المجتمع آنذاك يعتبر الأسرى مجرد بضاعة." 12

يكشف الكاتب أحمد بوشرب عن بعض الجوانب المهينة للكرامة الإنسانية حيث يورد أن "ظروف العيش انعكست على سيكولوجية الأسير المغربي. فقد حكم المغاربة بقساوة على البرتغال وسكانه، وأصبحوا يرون فيه بلد الحرمان والمعاناة من العبودية ومختلف الإهانات، حيث كانوا يعتبرون مجرد بهائم. فقد أكد أحدهم أن عبوديته تجعل منه مجرد حمار. لذا أجمعوا على ضرورة البحث عن وسيلة للفرار والعودة إلى المغرب، فقد نصح مغربي موطناً له بالفرار في أقرب وقت ممكن بقوله: ماذا نفعل هنا؟ فلنذهب إلى بلاد المسلمين لأننا نموت جوعاً ونعاني من سوء المعاملة. وغداً جل المغاربة المقيمين في حالة أسر بالبرتغال يتساءلون بشأن إقامتهم بالبرتغال التساؤل التالي: لماذا علينا أن نتحمل الأشغال والأسواط والإهانة؟ فلنذهب إلى بلاد المسلمين، ولنفر إلى هناك" 13؟

نرى هنا حجم المعاناة والأوضاع المزرية التي كان يعاني منها الإنسان المغربي، فبالأحرى الأسير الذي يعيش في ظروف أسوأ سوءاً، وصلت أفضعها بأن توضع علامات خاصة حيث كان اعتاد البرتغاليون على رسم علامات معينة بالنار على وجوه المغاربة لتميز أسراهم وعبدهم عن غيرهم.

هذه الصور وغيرها لا زالت مترسخة في المخيال البرتغالي عن المغاربة، وهو ما لاحظناه في هذا المقطع للرحلة البرتغالي "لوديلينو دي ميراندا ميلو" حيث يبدو العرب حذرين من الأوربيين ويرجع هذا الإحساس إلى حقد تاريخي دفين.

حيث يقول: "نشاهد عدداً كبيراً من المسلمين، بعضهم يتكلم والآخرون صامتون يكتنفهم الغموض، وجوههم سمراء وغمضة، دائماً غامضة في الزقاق وفي المساجد، ليسوا مضيافين (لا يثقون في الأوربي) وتظهر وجوههم أحقاد تاريخية تنبع من أرواحهم." 14

إن هذه الصورة الوصفية الدقيقة لهذا العدد الكبير من المسلمين ذوي الوجوه السمراء الغامضة تحمل أكثر من دلالة دينية للرحلة البرتغالي، نلاحظ أيضاً صورة أخرى تستعير معالمها من الخوف والحذر من المسلمين الغامضين الذين لا يثقون في الأوربي ويكنون له أحقاد تاريخية تنبع من أرواحهم.

فهذا السياق نجد أن: "الخيال الجمعي هو الذي يسهم في تشكيل الصورة، يستمد بعض ملامحه وأدواته من التاريخ، لكن ذلك لن يؤدي إلى إنتاج صورة على صلة بالحقيقة بشكل دائم، إذ كثيراً ما تكون نتاج أفكار وأوهام تشوه الواقع، إلى حد ما، إذ قد تتدخل في تشكيلها ظاهرة (العدو الموروث)، بل يمكننا القول بأن هذه الظاهرة هي جزء من الخيال الاجتماعي ومكونات اللاشعور الجمعي." 15

11 نفسه، ص. 105 – 106

12 نفسه، ص. 103

13 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 106

14 عبد المنعم بونو، "أدب الرحلات البرتغالي 1870-1996"، ص. 16

15 هشام بن سنوني، "صورة الموريسكي في المتخيل الإسباني"، مجلة الفكر المتوسطي، العدد الحادي عشر/جوان 2016 ص.

1-3 الأسرى المغاربة والمعاملة السيئة

يورد الكاتب أيضاً معلومات تاريخية مهمة عن الكيفية التي يستعاد بها المغاربة العبيد حريتهم، حيث "استعاد بعض الأسرى المغاربة حريتهم بعد أن أنعم عليهم أسيادهم بذلك، خصوصاً في حالة ردتهم عن الإسلام، كما فعل الملك البرتغالي ذلك عدة مرات. غير أن أغلب من استعاد حريته أدى عنها ثمناً غالياً. وتزخر مصادر محاكم التفتيش بالإشارات إلى الأثمان التي كان الأسياد يطالبون بها وإلى الطرق المختلفة للدفع، سن الأسير وبنيتة الجسدية كانا يحددان الثمن المطلوب، وهكذا تراوح ما دفعه المغاربة بين 10000 ريال و50000 ريال للفرد الواحد، حصل بعض الأسرى على المبالغ من المغرب أو تم جمعها بعرق الجبين"16.

الأوضاع العامة والظروف القاسية للمغاربة انعكست على الأنشطة والأعمال التي كان جل المغاربة يعملون فيها، حيث كانوا يعملون في مهن بسيطة أو حمالين في ميناء لشبونة أو بأسواق الحبوب في المدن الصغيرة، أو يعملون في مواسم صيد الأسماك، هذه الأعمال الشاقة لم تكن تسمح إلا بمداخل هزيلة، هذه بعض صور من الفقر المدقع الذي كان المغاربة يتخبطون فيه، وهكذا لم يكن في متناول أغلب المغاربة ضمان قوت يومهم لذلك كانوا يتحملون الأعمال الشاقة.

حيث تم تكليف الأسرى المغاربة ببعض المهام التي ميزتهم عن باقي الأسرى والعبيد فقد اعتنوا بالدواب وبالخيول والعمل في أوراش البناء وحمل المياه من السواقي واستصلاح الأراضي وغيرها من الأعمال الشاقة المضنية.

انعكست هذه الظروف القاسية والمعاملة للإنسانية للمغاربة في البرتغال على رؤيتهم لوطنهم، حيث "يروون تلك البلاد الممتدة الأطراف والغنية التي كان كل شيء يعرض فيها بأبخس الأثمان، بلد الرخاء حيث يكثر اللحم ومتطلبات الحياة، بلد الوفرة الذي تعيش فيه الملائكة"17، الشيء الذي جعل المغاربة يحنون كثيراً لمسقط رأسهم وإلى الرجوع بأي حيلة كانت إلى موطنهم.

المشكل المورسكي سواء بإسبانيا أو البرتغال هو صراعاً ديني بالأساس، تطور ليصبح صراعاً ثقافياً حضارياً، حيث كان المجتمع المسيحي دائم التخوف من معتقدات المسيحيين الجدد، فهو لاء المورسكيين " أولئك المنحدرين من مسلمي إسبانيا والبرتغال المنتصرين منذ 1501 بقتالة، ومنذ 1526 بمملكة الأروغون. فبعد أن أسيتت معاملتهم، وبعد أن لقنوا المسيحية وتم الاعتناء بهم، طردوا في جماعات كبرى فيما بين 1509-1514 نظراً لكونهم كانوا يمثلون باستمرار مصدر خوف بالنسبة للمسيحيين"18.

1-4 وضعية مسلمي الشارة (Mouros de sinal)

ساهمت الظروف القاسية في امتناع عدد كبير من الأسرى عن الردة، " فقد كان الذين تنعتهم وثائق محكمة التفتيش بـ مسلمي الشارة (Mouros de sinal) لكونهم كانوا ملزمين بحمل شارة مميزة، في حالة أسر، وكانوا قليلي الاكتراث بالتنصر ليقينهم بأن ذلك لن يمكنهم من تحسين ظروف عيشهم، وأن ردتهم ستحرمهم من إمكانية الإفتداء بواسطة أقارب لهم أو عن طريق الفكاكين الذين كانوا بين الفينة والأخرى يتوافدون على البرتغال بين الفينة والأخرى"19.

يشير الأستاذ محمد أنقار إلى لفظة "المورو" في السياق الإسباني التي لا يختلف كثيراً عن السياق البرتغالي من حيث الدلالة، حيث تطرح تقريباً على نفس السياق بقوله: " تختزل لفظة (المورو) Mouro في الأدب والثقافة والحياة الإسبانية كل الإمكانات الدلالية لصورة الآخر المسلم عامة والمغربي على وجه الخصوص. ويبدو أن الأصل اللغوي للفظه سابق على بداية الفتح الإسلامي (711)، ففي العرف الروماني كانت مورو Mauro تعني الرجل الأسود، وفي التاريخ الإغريقي تعني سكان موريطانيا أو أفريقية الشمالية. وبعد ذلك أصبحت تدل على امتزاج العنصرين البربري والعربي، أو على المسلمين عموماً. وفي إسبانيا يدل الإستعمال اليومي للفظه على سكان المغرب الأقصى خاصة، وعلى ما يفيد الخطر، وعدم الثقة"20.

يزال الباحثون إلى اليوم يطلقون المصطلح نفسه بحمولته التاريخية والقانونية للدلالة على المسلمين الذين تحولوا قهراً إلى المسيحية، والذين هاجروا في بداية القرن السابع عشر إلى عدد من البلدان العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

16 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 108

17 نفسه، ص. 128

18 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 129

19 نفسه، ص. 107

20 محمد أنقار، "بناء الصورة في الرواية الإستعمارية، صورة المغرب في الرواية الإسبانية"، الطبعة الأولى 1994، ص. 75

ويضيف قائلاً: "يطلق" (المورو) على كل سكان شمال افريقيا أي المنطقة المغاربية، كما أنه يمكن أن يشير بالتحديد إلى الأمازيغ المغاربيين" 21.

3- التعايش المستحيل ما بين البرتغاليين والمغاربة

انعكست الأوضاع السياسية والظروف السوسيو-اقتصادية للمجتمع البرتغالي خلال هذه الفترة التاريخية الصعبة، وكانت لها الأثر الأبرز في رفض الأجنبي مهما كانت ديانته وعرقه، بالأحرى الآخر المغربي المسلم الذي شكل لسنوات خلقت الخطر الأهم والمنافس الشرس إبان تواجده بشبه الجزيرة الإيبيرية، هذه المعطيات التاريخية وغيرها شكلت العقبة الأولى للإندماج في النسيج المجتمعي البرتغالي.

هذه العوائق التاريخية حالت دون اندماج الأجانب في المجتمع البرتغالي وجعلته تعايشاً مستحيلاً، فبعد تنصير المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية إبان محاكم التفتيش، صار هؤلاء المسيحيين المحدثين مصدر خوف أكبر وذلك راجع لإنعدام الثقة في ديانتهم الجديدة، بحيث " وبعد أن لقنوا المسيحية وتم الاعتراف بهم، طردوا في جماعات كبرى فيما بين 1509-1514 نظراً لكونهم كانوا يمثلون باستمرار مصدر خوف بالنسبة للمسيحيين... ومما أعطى حدة لفشل محاولات إندماج المورسكيين في المجتمع الإسباني، أنهم كانوا أبناء الوطن، يتقنون لغته، وكانوا متعودين على نمط عيشه وعاداته وتقاليده. كما أن المظهر الخارجي والملاحم لم تكن تميز بين المورسكي والمسيحي الأصلي. ومن جهة أخرى، تريتت السلطات الدينية والمدنية، ولم تسارع إلى إلغاء الهوية الثقافية للمورسكيين فور تنصيرهم. فقد فصلت فترة طويلة بين تاريخ التنصر ومنع المورسكيين منذ 1567 من استعمال اللباس الإسلامي واللغة العربية والحمامات. " 22

يربط الكاتب بين استحالة العيش المشترك ما بين البرتغاليين (المسيحيين الأصليين) والمغاربة (المسيحيين المحدثين) الذين أكرهوا على اعتناق المسيحية، هذا العيش المشترك الذي صار عيشاً مستحيلاً بين البرتغاليين والمغاربة وعبئاً كبيراً على الدولة البرتغالية نفسها، ويضيف الكاتب أحمد بوشرب أن كل محاولات إندماج المورسكيين في المجتمع البرتغالي باءت بالفشل لأن "المجتمع البرتغالي لم يعد يكتفي بما اعتاد عليه في القرون الوسطى، وأصبح يهيمش كل من فضل نموذجاً مخالفاً لنموذجه، وذلك بإلزامه بالإقامة بأحياء خاصة ومعزولة وحمل شارات مميزة" 23.

"لقد كانت وضعية الجالية المورسكية في البرتغال مختلفة كل الاختلاف بسبب الخصوصية التي سبق التلميح إليها. لقد كان كل شيء، من لباس ولغة ونمط عير وديانة، غريباً عن الذين تسميهم مصادر محاكم التفتيش مورسكيين، فإذا كانت وضعية المغاربة أو الأتراك أو الهنود أو مسلمي حوض السنغال كمسلمين تجعل منهم أشخاصاً مهمشين، فإنه كان من المتوقع أن تجعل ردتهم حدا لهذه الوضعية، وأن تضمن لهم نوعاً من المساواة مع البرتغاليين. غير أن عاملين حالاً دون ذلك: موقف المجتمع المضيف من الأقليات الدينية والعرقية التي كانت تعيش ضمنه من جهة، وموقف تلك الأقليات من البلاد وسكانها وقيمهم من جهة ثانية. "

لم يكن المجتمع البرتغالي ومحكمة التفتيش التي أنشأها منذ 1536 للدفاع عن قيمه يؤمنان إلا بمجتمع واحد ومتناسق لا يعرف أي اختلاف لم يعد المجتمع البرتغالي يكتفي بما اعتاد عليه خلال القرون الوسطى، أي تهيمش كل من فضل نموذجاً مخالفاً لنموذجه، وذلك بإلزامه بالإقامة بأحياء خاصة ومعزولة، ويحمل شارات مميزة. لقد أضحت ذلك المجتمع منذ إنشاء محاكم التفتيش يعاقب بكل صرامة، ليس فقط من ارتد عن الكاثوليكية أو اتبع هرطقة معينة، بل كذلك من تبني أي مظهر، مهما كان بسيطاً، من مظاهر هوية ثقافية أخرى. غير أن البرتغال لم يعرف ما تم في إسبانيا من محاولات تلقين المرتدين عقيدتهم الجديدة، ولم يعرف كذلك تلك المحاولات المبذولة في البلد المجاور قصد تسهيل اندماج المسيحيين المحدثين(4). كما أنه لم يمهل المنتصرين، الذين كانوا غرباء عن البلد كما لاحظنا، حتى يتمكنوا من التعود على ظروف عيشهم كمسيحيين، ولم يستفيدوا به من أي قرار عفو جماعي. " 24

لهذه الأسباب، وقف المجتمع المسيحي من أولئك الغرباء موقفاً متناقضاً، ففي الوقت الذي كان يحثهم بكل الوسائل على التنصر، كان خوفه على عقيدته الشيء الذي إلى تهيمشهم وعدم الثقة فيهم. " 25

21 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996 ص75

22 نفسه، ص. 129

23 نفسه، ص. 130

24 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 130

25 نفسه، ص. 130 / 131

"وتعكس الأدوار الموكولة لمحكمة التفتيش التناقض المذكور. لقد كانت مهمتها تتحصر في الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية وقمع كل خروج عن النهج المسطر من لدن الكنيسة، غير أنها شكلت في نفس الوقت وسيلة مثالية للتهميش. فالعقوبات التي كانت تفرضها على المتهمين، والإهانات التي كانت تنتج عن ارتداء اللباس المفروض على من قضاوا مدة العقوبة، كانت تجعل من كل الذين سقطوا في شباك تلك المحكمة أشخاصا لا يجرؤ أحد على الاتصال بهم" 26

هذه الظروف القاسية والمعيشة الصعبة انضافت إلى العلاقات السيئة ما بين الجالية المغربية والمجتمع البرتغالي، إضافة إلى الموقف الرافض لمظاهر الهوية الثقافية المغربية من لدن المجتمع البرتغالي، هذه الأمور وغيرها جعلت من المستحيل تحقيق اندماج ولو جزئي بين المجتمع الوافد والمضيف، الشيء الذي دفع الأغلبية الساحقة من مغاربة البرتغال إلى البحث بكل السبل للفرار من البرتغال والعودة إلى المغرب.

خاتمة:

يصنع كل بلد لنفسه صور عن الشعوب الأخرى، تبنى هذه الصور وتترسخ في المخيال الجمعي للشعوب، تبنى عبر الزمن لتتحول إلى صور مشيدة في أذهان الفئات والجماعات، قد تأخذ هذه الصور جانب من الواقع وتغفل عن جوانب أخرى، وقد تكون صور مشوهة ذات حمولة سلبية لتبخيس ثقافة الآخر، هذا ما رأيناه في هذا النص الذي سلط الضوء على معالم تاريخية تصور المغاربة في البرتغال في القرن السادس عشر تزييف معتقداتهم وتحتقر ثقافتهم وتحتقر دينهم. "كثيراً ما كانت الصور العدائية المقدمة عن الآخر، بمثابة تقديم صورة غير موضوعية للذات وللآخر في الوقت نفسه، مع أن الذات تدرك نفسها حين تتعامل مع الآخر، إذ تتشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر، لذلك لأن أي تشويه في النظرة للآخر، لا بد أن يعني تشويهاً كامناً في الذات، إذ لا يكون التعبير عن الذات إلا بنفي الآخر أو تشويهه!" 27

"ويمكن أن تعد هذه الصورة جزءاً من التاريخ بالمعنى الوقائعي والسياسي، أي جزء من الخيال الاجتماعي، والفضاء الثقافي، أو الإيديولوجي الذي تقع ضمنه." 28 وهذا كان عليه المجتمع البرتغالي الذي لا يقبل أي اختلاف لغوي أو ثقافي، الشيء الذي زاد من الاضطهاد المجتمعي للجالية المغربية حتى مورس عليها أشكال متعددة من العنف بشتى أنواعه.

هذه الصور وغيرها تنتصر لقيم الذات الأوربية المركزية في مقابل تبخيس ثقافة الآخر وبناء صورة سلبية عنه، ويظهر ذلك وبشكل جلي من خلال الأحكام المسبقة والأوصاف والنعوت السلبية والصاق كل المظاهر السلبية بالآخر.

ونتيجة لذلك، صار المجتمع البرتغالي يرى في ذلك الآخر المغربي المتمسك بهويته مصدرراً للخوف على الأمة البرتغالية، "المجتمع المسيحي لا يقبل أي اختلاف لغوي أو ثقافي، كان المغربي بدوره غير مستعد للتخلي عن لغته وعاداته وتقاليدته التي كان يجد فيها ذاته واستقراره. ومن الأكيد أن اضطهاده والتتكيل به لمجرد تمسكه بهويته تلك، أحدثا لديه أزمة ضمير وعمقا شعوره بالغرابة" 29.

إن هذا التعايش المستحيل بين المسلمين القادمين من المغرب ومسيحيي البرتغال دفع المغاربة أو الغالبية الساحقة منهم إلى البحث عن سبيل للفرار والعودة إلى وطنهم، هروبا من المعاملة القاسية والعنصرية تجاه ثقافتهم ودينهم.

26 نفسه، ص. 131

27 ماجدة حمود، "صورة الآخر في التراث العربي"، ط1، منشورات الاختلاف، 2010، ص. 09

28 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 10

29 أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة 1، 1996، ص. 133

لائحة المصادر والمراجع

باللغة العربية:

أحمد بوشرب، "مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط، الطبعة الأولى، 1996.

أنطونيو دياش فارينيا، "البرتغاليون في المغرب"، ترجمة عبد الإله سويس، معهد كاموئش، الطبعة 2، 2002
ماجدة حمود، "صورة الآخر في التراث العربي"، ط1، منشورات الإختلاف، 2010
محمد أنقار، "بناء الصورة في الرواية الإستعمارية"، صورة المغرب في الرواية الإسبانية"، الطبعة الأولى 1994.
مؤلف جماعي، "الوجود البرتغالي في المغرب وآثاره"، أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط 2006.
مؤلف جماعي، تنسيق: د. ادريس عبيزة – دة. فاتحة الطايب – د. محمد التعمرتي "الثقافة الشعبية المغربية في النصوص والدراسات الوطنية والأجنبية"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 187

باللغة الأجنبية:

Ontonio Dias Farinha, "Os Portugueses em Marrocos" Edição 2, revista , Instituto Camões 2002.

Abdelmouneim Bouno , "Relatos portugueses de viagens "(1870-1996), Instituto de Camões , 1998,

Ontonio Dias Farinha. "Recherches portugaises sur le Maroc a l' époque moderne": Esquisse bibliographique , publication de la faculté des lettres- Rabat. 1993.